نظرية فن القول
عند حازم القرطاجني

بقلم

د. محمد المهدي الغزالي

كلية الآداب والتربية
جامعة قاريونس
بنغازي

نظرية فن القول عند حازم القرطاجني

د. محمد المهدي الغزالي

عُرف حازم القرطاجنّي[1] في العصر الحديث أوّل ما عُرِف بمقصورته

(1) هو أبو الحسن حازم بن محمد بن الحسن الأوسي. ولد عام 1608 هـ ـ 1211 م بمرسي قرطاجنّة الواقع بالجنوب الشرقي من بلاد الأندلس قرب مدينة مرسيّة؛ واشتهر بنسبته إلى مسقط رأسه هذا حتى عُرِف بالقرطاجنّي. قضى حياته الأولى في الأندلس منتقلاً بين قرطاجنّة ومرسيّة واتّصل بغرناطة وأشبيليّة قبل أن يضطرّ لمغادرة الأندلس نهائياً ـ على أثر الاجتياح الأسباني لبلاده ـ ويستقّر بقيّة حياته ـ بعد أن مرّ بالمغرب الأقصى ـ في تونس حيث توفي عام 684 هـ ـ 1185 م.

ضلع القرطاجنّي في العلوم الشرعيّة واللغويّة والعقليّة أيضاً. وكان راوية للأخبار والآداب. وكان شاعراً له أشعار كثيرة جمعت حديثاً في ديوان [ديوان حازم القرطاجنّي ـ نشر الكعاك؛ بيروت؛ 1964 م؛ مجلد واحد]. على أنّ أشهر أعماله الشعرية قصيدة المقصورة التي نظمها على بحر الرجز واحتوت على ستة وألف بيت عارض بها مقصورة ابن دريد وجعلها في مدح المستنصر أمير تونس الحفصيّ. وأغراضها ـ في الحقيقة ـ متعدّدة فقد شملت الغزل والحكمة والمثل والوعظ والقصص والاعتبار وكانت في أساسها تعبيراً عن حنين حازم وذكرياته الجميلة بالأندلس؛ ووصفاً لأماكن أيامه الخالية في مدائن الأندلس البهيجة؛ وتذكيراً بأسباب هزيمة المسلمين في تلك الديار. ومن آثاره اللغويّة القصيدة النحويّة التي لا تزال مخطوطة بنصّها الذي لم يكمله حازم في مكتبة الأحمديّة بجامع الزيتونة بتونس وهي قصيدة ميميّة من تسعة عشر ومائتي بيت من بحر البسيط عارض بها ابن معط وابن=

الشعريّة التي كشف النقاب عنها المستشرق الأسبانيّ أميليو غورسيه غومس عام 1933 في: «ملاحظات على القصيدة المقصورة لأبي الحسن حازم القرطاجنّي»[1] حيث أشار إلى اهتمام الأوائل بهذا العمل المميّز ومنهم الغرناطي[2] الذي حاول نفس المستشرق الترجمة له كما ترجم لحازم.

وفي الوطن العربي كتب الدكتور مهدي علاّم في أوائل الخمسينات مقالتين حول حازم القرطاجني وفن المقصورة في الأدب العربي وقام بتحقيق نصّ مقصورة حازم[3].

وفي مجلّد «إلى طه حسين» شارك الدكتور عبد الرحمٰن بدوي بمبحث عنوانه: «حازم القرطاجنّي ونظريات أرسطو في الشعر والبلاغة» كشف فيه النقاب عن أهميّة كتابٍ آخر لحازم القرطاجنّي هو كتاب: «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» يتّصل بالبلاغة والنقد وينمّ عن تأثير أرسطو طاليسيّ واضح. ونشر لأوّل مرّة المنهج الثالث من القسم الثاني (أيّ الفصل الثالث من الجزء

= مالك. ولحازم أيضاً بنفس المكتبة ثلاث ورقات من كتاب له مخطوط في القوافي. ومن آثاره البلاغية والنقديّة الكتاب الذي نحن بصدد استجلاء نظرية فن القول منه وهو: «منهاج البلغاء وسراج الأدباء».

ـ انظر حياة حازم ومصنفات حازم من مقدمة كتاب «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» ط تونس 1966 لمحمد الحبيب ابن الحوجة.

(1) مقال في مجلّة «الأندلس» المجلّد الأول ص 81، ص 104.

E. Garcia Gomez: «Observaciones sobre La Qasida al-maqsura de Abu'L-H. Hâzim aL-Q», AL-Andalus, I, 81 - 104.

(2) أحد رجال القرن الثامن الهجري ولد بسبتة عام 697 هـ ـ 1297 م وتوفي بغرناطة عام 760 هـ ـ 1359 م. وعنوان شرحه هو: «رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة» انظر «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» مدخل المنهاج ص 84.

(3) الدكتور مهدي علاّم: «أبو الحسن حازم القرطاجنّي وفن المقصورة في الأدب العربي» مقالاته في «حوليات كلية الآداب» جامعة عين شمس [جامعة إبراهيم باشا] ج 1 ص 1: ص 31. جـ 2 ص 1: ص 110 القاهرة 1953 ـ 1954.

الثاني) الذي يظهر فيه تأثير أرسطو طاليس هذا[1].

وفي عام 1966 قام محمد الحبيب ابن الحوجة بتقديم وتحقيق مخطوط هذا الكتاب الهام ضمن دراسة قُدِّمت لدرجة الدكتوراة بجامعة السربون بفرنسا[2] وتضمّنت هذه الدراسة الوافية تعريفاً بحياة ومصادر حياة حازم ومؤلفاته مع تحليل لما بقي من أقسام ومناهج الكتاب.

وفي عام 1977 قُمت بدراسة ركّزت على الأفكار والمصطلحات الفنيّة التي تضمَّنها هذا الكتاب ومدى أثر أرسطو طاليس في ذلك[3].

وأحاول في هذ المقام أن أتوسَّم نظرية متكاملة لحازم القرطاجنِّي في فَنِّ القول عامة وفنِّ الشعر خاصة اعتماداً على فحصٍ لما وصل إلينا من نصوص هذا الكتاب المثير في إطار ما توفَّر من أقسامه ومناهجه. وهو قدر لا يتجاوز ثلثي الكتاب كاملاً مع الأخذ بالاعتبار للأهمِّيَة التي تُعْطى عادة لمقدّمات الكتب وبداياتها وهي هنا ـ للأسف ـ مفقودة.

● حاول حازم القرطاجني من خلال الأربعة أقسام التي يتألّف فيها كتابه: «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» أن يضع تصوّراً لنظريَّة فن القول عند العرب، وكانت محاولته هذه تتّسم بالجَّدة بالنسبة للتيارات السائدة عند النقاد والبلاغيين العرب، وهي جدّة تطالعنا من الوهلة الأولى فتقسيمه لكتاب المنهاج إلى أربعة أقسام:

---

(1) انظر «إلى طه حسين» 85:146 القاهرة 1962.

(2) انظر «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» لأبي الحسن حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الحوجة. دار الكتب الشرقية تونس 1966. وانظر:

Hâzim aL-Qartâganni PAR Habib Belkhodja, Publications de L'Institut des Belles Lettres Arabes TUNIS 29, 1967.

(3) LES IDEES ET LES TERMES TECHNIQUES LITTERAIRES CHEZ HAZIM AL QARTAJANNI ET L'INFLUENCE D'ARISTOTE SUR CET AUTEUR These presentée, par MOUHAMAD AL-MAHDI AL-GHAZALI Univesité de Paris - Sorbonne - Paris IV.

- قسم خاص بالألفاظ.
- قسم خاص بالمعاني.
- قسم خاص بالمباني.
- قسم خاص بالأسلوب.

يحمل على الاعتقاد أنَّ العناصر الأساسيّة التي تقوم عليها نظريَّته هذه وهي:

1 ـ الألفاظ بأوسع ما يمكن أن تحمل هذه الكلمة من معنى أيّ اللغة ـ أداة التعبير ـ بكل أشكالها ومستوياتها: الحروف، المقاطع، الكلمات، الجمل، العبارات... إلخ.

2 ـ المعاني بأوسع ما يمكن أن تحمل هذه الكلمة من معنى: الدوافع والبواعث الشعريّة، حالات النفس «الأحوال»، الأشياء التي تدور حولها هذه الأحوال (أو كما سمَّاها حازم الجهات) وما يقوم حول هذه الجهات «الأشياء» من مُتصوّرات، الدلالات الناتجة عن الصور البيانيَّة والصور النحويّة للغة الأدبيّة.

3 ـ المباني. يعني البنية التركيبيّة للغة الشعرّية بالذات، والنظم بكل ما يعنيه من تركيب الأوزان والبناء العام للقصيدة.

4 ـ الأسلوب ويعني به مآخذ الشعراء ومناحيهم ومنازعهم في المعاني الشعريّة.

● في رأي حازم إذا كانت البلاغة معياراً للكلام تنطبق على الشعر انطباقها على الخطابة فإنّ الفرق بين الصناعتين إنّما يأتي في الواقع من جهة الصورة من حيث أنَّ الصورة الفنيَّة للصناعة الشعريّة ليست إلاّ انعكاساً لعنصر

* رسم بياني بمحتويات الكتاب :



(*) ورد هذا التعريف للقسم المفقود ـ إشارةً ـ في ما بقي من الكتاب انظر ص 17 : إضاءة 15.

التخييل كما أنّ الصورة الفنيّة للصناعة الخطابيّة ليست إلاّ انعكاساً لعنصر الإقناع[1] وعلى هذا الأساس تبنّى حازم وجهة نظر الفارابي وابن سينا في إقامة الصناعة الشعريّة ـ التي تعتمد أصلاً على المحاكاة ـ على التخييل، كما أُقيمت الصناعة الخطابيّة ـ التي تعتمد أصلاً على تقويّة الظنّ ـ على الإقناع[2] وربما لم يُجارِ تماماً حازم شرّاح أرسطو طاليس المسلمين عندما أجاز للشاعر اللجوء من وقت لآخر إلى عنصر الإقناع على أن لا يطغى ذلك على عنصر التخييل[3] ويذكر هنا مثلاً يُحتذى ـ فيما اعتبره مراوحة بين المعاني الشعريّة والمعاني الخطابيّة ـ أبا الطيّب المتنبّي[4] فقد كان هذا كثيراً ما يختم فصول قصائده بأمثال وحكم واستدلالات خطابيّة مقنعة تأتي تذييلاً للمعاني المخيّلة ابتداءً في أول الفصل.

ولأهمية الاستدلالات الخطابيّة من هذه الناحية في الصناعة الشعريّة تناولها حازم فتحدّث عن الاستدراجات والتمويهات[5] وتوقّف عند التمثيل الخطابي الذي لاحظ كثرة استخدامه في الأشعار العربيّة[6].

أخرجتموه بكرة عن سجيّته والنار قد تُنتضى من ناضر السلم

وتناول حازم من ناحية أخرى علاقة التخييل ـ عنصراً أساسياً في

---

(1) انظر ـ أساساً ـ المنهج الثالث من كتاب المنهاج ص 62. وانظر أيضاً المنهج الثاني ص 19 فقدمه ج ـ معلم.

(2) انظر الفصل الأول ص: 24 و 25 من: ابن سينا ـ الشفاء ـ المنطق ـ 9 ـ الشعر. تحقيق وتقديم د/ عبد الرحمٰن بدوي. ط القاهرة 1966. وانظر الفقرات الأولى من معاني الشعر ص: 15؛ 16. ابن سينا، كتاب المجموعة تحقيق وشرح ومحمد سليم سالم مصر 1969.

(3) انظر المنهاج ص: 293 ـ 13 إضاءة.

(4) انظر المنهاج ص: 63 و 64 ـ 2 تنوير، 3 ـ إضاءة، 4/ تنوير، 5/ إضاءة.

(5) انظر المنهاج ص: 67 ـ 12/ تنوير.

(6) انظر المنهاج ص: 62، 63 ـ مقدمة أ/ معلم.

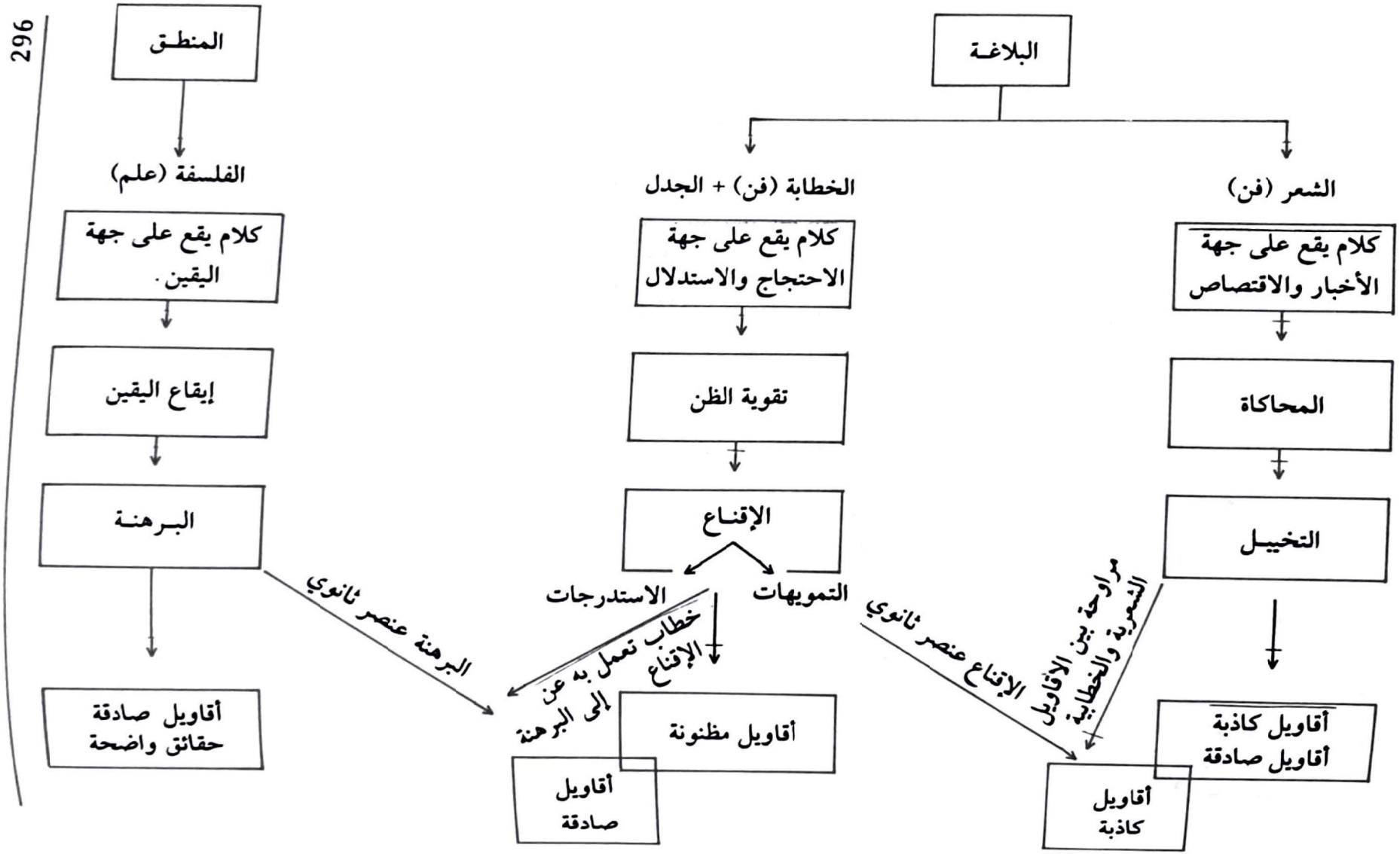
الشعر ـ بالصدق والكذب[1] حيث أكّد على أنَّ التخييل لا ينافي اليقين كما نافاه الظن. لأن الشيء قد يُخيَّل على ما هو عليه وقد يُخيَّل على غير ما هو عليه ولذا فإنّ الأقاويل الشعريَّة غير واقعة أبداً من طرف واحداً من النقيضين اللذين هما الصدق والكذب ولكن تقع تارة صادقة وتارة كاذبة إذْ ما تتقدَّم به الصناعة الشعريَّة وهو التخييل غير مناقض لواحدٍ من الطرفين. ويبقى مع ذلك عنده للصدق قوته الإقناعية في الخطابة والشعر على السواء.

وهكذا من خلال معالجة حازم لمصطلحيْ المحاكاة والتخييل ومن خلال معالجته لقضيّة الصدق والكذب في الشعر استطاع أن يُبين عن طبيعة الشعر والصناعة الشعريّة ليعرِّف الشعر أوّلاً تعريفاً طويلاً بأنّه: «كلام موزون مقفى من شأنه أن يحبِّب إلى النفس ما قُصد تحبيبه إليها ويكرِّه إليها ما قُصد تكريهه لتُحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه بما يتضمَّنه من حسن تخييلٍ له ومحاكاةٍ مستقلةٍ بنفسها أو مُتصوّرة يحسن هيئة تأليف الكلام أو قوّة صدقه أو قوّة شهرته أو مجموع ذلك. وكلّ ذلك يتأكّد بما يقترن من أغراب فإنّ الاستغراب والعجب حركة للنفس إذا اقترنت بحركتها الخياليّة قوي انفعالها وتأثّرها»[2] ويعرِّفه ثانياً تعريف ابن سينا فيقول[3]:

«الشعر كلام مخيَّل موزون مختصّ في لسان العرب بزيادة التقفية إلى ذلك. والتئامه من مقدّمات مخيّلة ـ صادقة كانت أو كاذبة ـ لا يشترط فيها بما هي شعر غير التخييل»[4].

---

(1) انظر المنهاج ص: 62، 63 ـ مقدمة أ/ معلم.
(2) انظر المنهاج ص: 71 ـ مقدمة ب/ معرف.
(3) انظر المنهاج ص: 89 ـ مقدمة جـ/ معلم.
(4) رسم بياني لتصوّر حازم لفني الشعر والخطابة بإزاء المنطق.


البلاغـة
الشعر (فن)
كلام يقع على جهة الأخبار والاقتصاص
المحاكاة
التخييـل
أقاويل كاذبة أقاويل صادقة
الخطابة (فن) + الجدل
كلام يقع على جهة الاحتجاج والاستدلال
تقوية الظن
الإقنـاع
التمويهات
الاستدرجات
المنطـق
الفلسفة (علم)
كلام يقع على جهة اليقين.
إيقاع اليقين
البـرهنـة
أقاويل صادقة حقائق واضحة
الإقناع عنصر ثانوي
مراوحة بين الأقاويل الشعرية والخطابية
البرهنة عنصر ثانوي
خطاب تعمل به عن الإقناع إلى البرهنة
أقاويل مظنونة
أقاويل صادقة
أقاويل كاذبة

● وإذا كان القسم الأوّل من كتاب المنهاج يُعدّ حتى الآن مفقوداً فإنَّ الإشارات المكرّرة إليه في الأقسام الأخرى قد دلّت على كثيرٍ من المواضيع التي عولجت فيه. . .

ويبدو جليّاً أنّ حازماً قد عالج في هذا القسم كلّ ما يمكن أن يتعلّق بالألفاظ ابتداءً من تركيباتها الصوتية في أبسط صورها في إطار الكلمة الواحدة أو الكلمات المنتظمة في جملةٍ أو عبارةٍ، وانتهاءً بدلالاتها المعنويّة ووضوح هذه الدلالة أو غموضها[1].

وليس هناك أدنى شكٍ في أنّه قد تناول موضوع حسن العبارة أو قبحها متعرّضاً لقضايا بلاغيّة معروفة كالإيجاز والإطناب والتقديم والتأخير والقلب والقصر والحذف والوصل والفصل وغير ذلك ممّا يتعلّق بتراكيب المعاني النحويّة. كما أنّه لا بدّ وأن يكون قد تناول النسبة الإسنادية بين الألفاظ كدلالات، وتناول مظاهر التقارب ووجوه التناسب بالتماثل أو بالتضاد بالتجاور أو بالتقابل. وتعرّض هنا أيضاً لقضايا بلاغيّة أخرى معروفة كالسجع والقافية والجناس وكذا التمثيل والمطابقة والمقابلة والمشابهة وحتى الاستعارة إلى غير ذلك مما يتعلّق في البلاغة العربية بمباحث تتّصل بالبيان والبديع.

● وفي القسم الثاني الخاص بالمعاني حيث يبدأ كتاب المنهاج الذي بين أيدينا الآن نفتقد أيضاً الفصل (المنهج) الأوّل على أهميته.

وواضح من الفصول الثلاثة الأخرى أن حازماً كان قد حدّد سلفاً «في الفصل الأوّل المفقود» ما يريده **بالمعاني**[2] وفقاً لمنظور متكامل يبدو إلى حدّ ما جليّاً من خلال الأفكار التي طرحها بالتتابع في بقيّة الفصول. ففي الفصل الثاني[3] يتناول ـ أصلاً ـ موضوع «اقتباس المعاني واجتلابها» حيث عالج

---

(1) أشار حازم إلى بعضٍ من ذلك. انظر المنهاج ص 16، 17، 33، 132، 225، 232.
(2) انظر المنهاج ص 9.
(3) المنهاج ص 11.

ـ ابتداءً ـ **البواعث الشعريّة** التي تحرّك الشاعر، والحالات النفسيّة «الأحوال» التي توجّه الأقاويل الشعريّة نحو هذا الغرض المحدّد أو ذاك. والمعاني الأصيلة في الشعر التي يمكن تسميتها حقيقة معاني شعريّة ليست في نظر حازم إلاّ المتصوّرات القائمة في ذهن الشاعر حول الأشياء «والجهات» التي يتّجه إليها غرضه الشعري العام. وهو يُعبِّر عن هذه المعاني من خلال وصفه للحالات النفسيّة المتّصلة بتلك الأشياء.

ومن هنا كان حديث حازم في هذا الفصل الثاني عن الجوانب النفسيّة في العمليّة الشعريّة وهي جوانب قويّة الصلة كما نرى بالمعاني الأصيلة في الشعر التي لا بدّ وأن يكون قد تناولها بإسهاب في الفصل المفقود.

وقد تطرَّق في الفصل الثاني[1] أيضاً لكيفيات مآخذ هذه المعاني ومواقعها من الوجود والعدم ونسب بعضها إلى بعض ومعطيات تحديداتها وتقديراتها ومعطيات الأحكام والاعتقادات فيها ومعطيات أنحاء المخاطبة وغير ذلك مما يعدّه حازم **معاني شعرٍ ثانويّة** بالنسبة لمعاني الشعر الأصلية السالفة الذكر. وتُمثِّل هذه المعاني الثانوية في نظره عمليّة التخييل الشعري على المستوى البياني والدلالي وهي ترجع في كثيرٍ منها إلى المسائل التي يُثيرها البلاغيون العرب عادةً في إطار باب البيان من علم البلاغة.

وقد ميّز حازم **المعاني الشعريّة الأصيلة** «المتصوّرات» بكون وجودها خارج ذهن الشاعر وجوداً حقيقياً. في حين رأى في وجود **المعاني الثواني** خارج الذهن وجوداً فرضيّاً لا حقيقياً، كالعلاقة بين الأشياء مثلاً «العلاقة بين الرجل الشجاع والأسد في قولك تحدّثت مع أسد».

على أنَّ هناك معاني ثـوانٍ أُخر ليس لها وجود خارج ذهن الشاعر أصـلاً: معاني ذهنيّة صرفة ـ هذه المـرّة ـ ويعني حازم بذلك تلك المعاني التي تتولّد عن «الصور التي تقع في الكلام بتنوّع طرق التأليف في المعاني

(1) انظر المنهاج ص 4 ـ 8 تنوير.

والألفاظ الدالة عليها»[1] وتعكس في ذهنه عمليّة التخييل الشعري على مستوى العبارة. ويتناول البلاغيون العرب هذا النمط من المعاني الثواني الأُخر «المعاني الذهنيّة الصرفة» عـادة في باب المعاني من علم البلاغة. ولقد أحسن عبد القاهر الجرجاني صنعاً عندما سمّى ذلك بالمعاني النحويّة.[2].

وإذا كانت **المعاني الشعرية الأصيلة** تتّصل بالبواعث الشعرية والحالات النفسيّة والتأثرات التي تحدثها هذه الحالات النفسيّة بقدر ما تتّصل بما سمّاه حازم **جهات الشعر** وتقصد بها الأشياء المحدّدة التي تتجه إليها الأغراض: كالحبيب، والاطلال، والراحلة، والممدوح وغير ذلك من الأشياء التي تحوم حولها مشاعر الشاعر ويتعلّق بها غرضه الشعري. فإنّ **المعاني الثواني** تتّصل بمقاصد الشاعر واعتقاداته وقدرته على تمييز مظاهر التقارب والتناسب بين تلك المعاني الشعريّة الأصيلة، بقدر ما ترجع إلى معرفته بطرق اختلاف صور النسب الإسناديّة واختلاف صور الوضع والترتيب في اللغة الشعرية المعبّرة عنها.

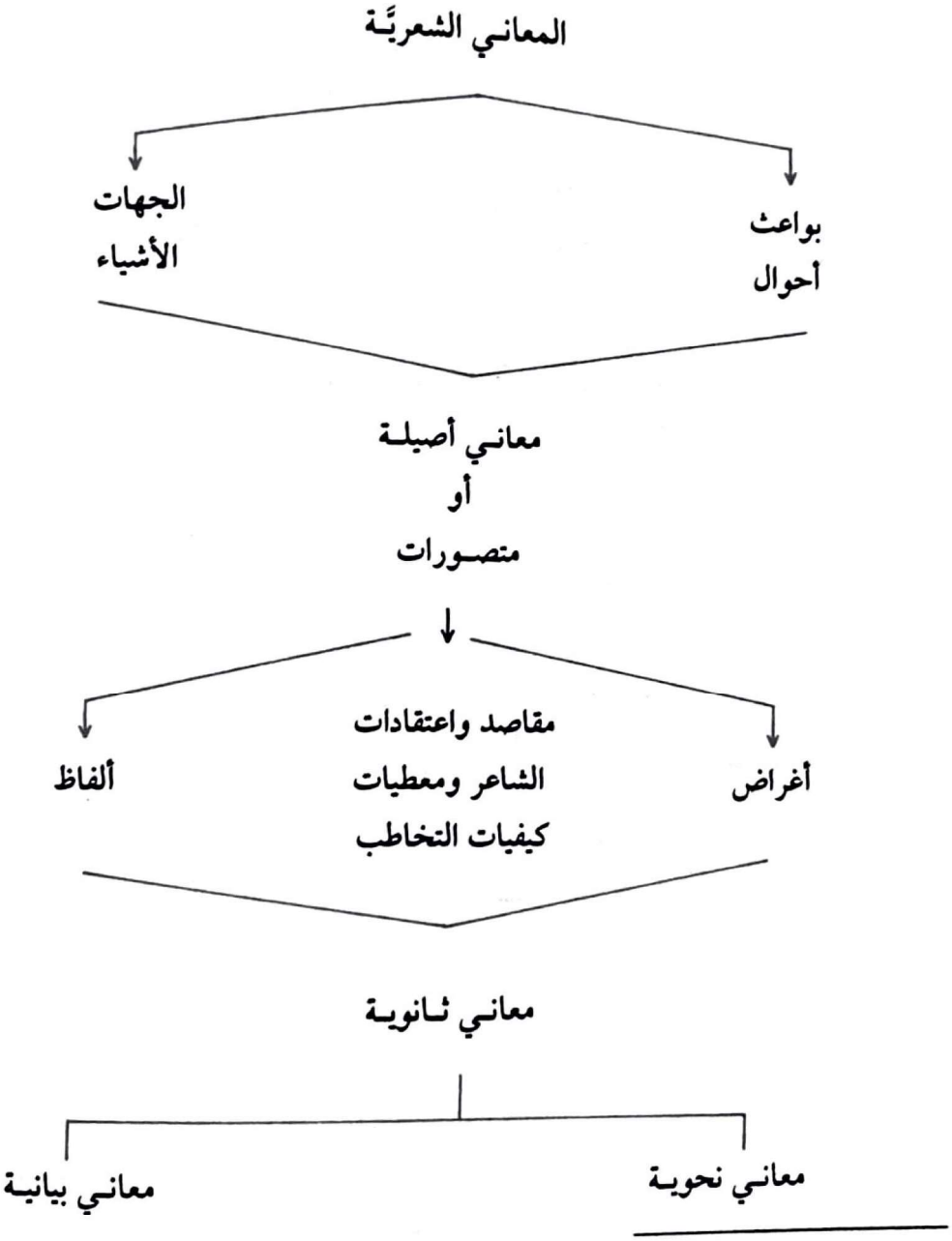
ولما كانت الأشياء التي يمكن أن يتناولها شاعر بالوصف «الجهات» أكثر من أن تحصى، كذلك ما يمكن أن ينطبع في الذهن من صورٍ لتلك الأشياء «المتصوّرات» وما يدور في هذا الذهن من شتّى أنواع المقارنات والمقابلات وفقاً لحشد هائلٍ من النوايا والاعتبارات والمشاعر والتأثرات. فقد وصل حازم إلى أنّ المعاني الشعريّة المركّبة من الأوصاف بحسب ما تتّجه إليه الأغراض أجدر بأن لا يستطاع إحصاؤها. ومع ذلك فقد وضع مبدأين عامّين للتوصّل إلى استشارتها واستنباط تركيباتها[3] وهما:

1 ـ التملُّؤ من العلم بأوصاف الأشياء وما يتعلَّق بها من أوصاف غيرها. (المعاني الأصيلة).

---

(1) انظر المنهاج ص 15 ـ 11/ إضاءة.
(2) انظر المنهاج ص 37، 38 مقدمة هـ/ معلم.
(3) انظر المنهاج ص 37، 38 مقدمة هـ/ معلم.

2 ـ التنبّة للهيئات التي يكون عليها إلتآم تلك الأوصاف وموصوفاتها ونسب بعض إلى بعض أحسن موقعٍ من النفوس والتفطّن إلى ما يليق بها من ذلك بحسب موضع موضع وغرض غرض. (المعاني الثواني الأُوَل والأخر)[1].



(1) رسم بياني لتصوّر حازم للمعاني الشعرية.

● في القسم الثالث من كتاب المنهاج كان همّ المؤلّف هو دراسة البنية التركيبيّة في العمل الشعري، هكذا تناول بالبحث ـ في بداية فصول هذا القسم الأربعة ـ **الصناعة النظميّة**[1] كجانب جوهري وأساسي في هذه البنية ليحلّل فيما بعد على التوالي:

ـ البيت، باعتباره مقادير معينة من الأصوات الموزونة والمقفاة[2].

ـ الفصل، باعتباره حلقة في تسلسل الأفكار والتعبيرات الشعريّة[3].

ـ القصيدة، باعتبارها إطاراً عاماً للأبيات والفصول[4].

وهذه الثلاثة: البيت، والفصل، والقصيدة تُمثِّل في ذهن حازم الجانب الشكلي الظاهري في بنية العمل الشعري. وقد أعاد حازم بالمناسبة النظر في طبيعة الأوزان العربيّة وهو أمر يحتاج إلى مبحث خاص[5].

● وفي القسم الرابع والأخير يتناول حازم بطريقته الخاصة والمتميّزة الأسلوب.

وإذا كان **النظم** في نظره هو: صورة كيفيّة الاستمرار في الألفاظ والعبارات والتراكيب؛ والهيئة الحاصلة عن كيفيّة النقلة من بعضها إلى بعض؛ وما يعتمد فيها من ضروب «**الوضع** وأنحاء **الترتيب**» فإن **الأسلوب** يمثّل في نظره: «الصورة والهيئة التي تحصل عن كيفيّة **الإطراد** في المعاني **والاستمرار** في أوصاف جهةٍ جهةٍ من جهات غرض القول؛ والنقلة من بعضها إلى بعض»[6].

---

(1) انظر المنهاج ص 199.

(2) انظر المنهاج ص 226.

(3) انظر المنهاج ص 287.

(4) انظر المنهاج ص 303.

(5) لنا عودة ـ إن شاء الله ـ إلى تفصيل ما أجملنا هنا.

(6) انظر المنهاج ص 363 ـ مقدمة هـ/ معلم.

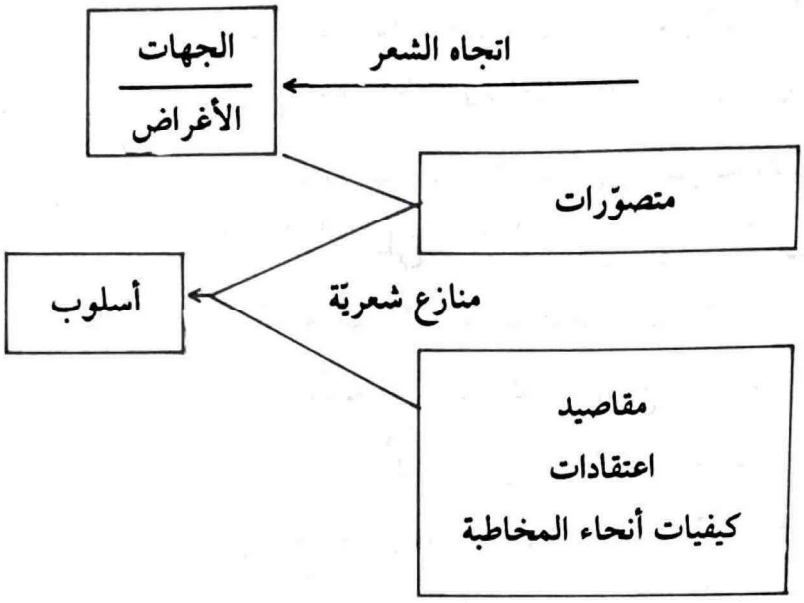
وإذا كان **النظام** يُمثّل في ذهنه: الهيئة أو الشكل العام الذي تأخذه الصناعة النظميَّة على مستوى الألفاظ والأوزان؛ فإن **المنحى** يمثّل في ذهنه: التوجه العام للشاعر في اختياره لجهات الشعر التي يتعلق بها غرضه، واختيار الأوصاف والمعاني المتصلة بها. وفي إطار هذا التوجّه العام (المنحى) يتحدّد أسلوب الشاعر.

وهذه التفرقة البيّنة بين **النظم** الذي تناوله في القسم الثالث من المنهاج؛ وبين **الأسلوب** الذي تناوله في القسم الرابع منه يأتي تبعاً للتفرقة البيّنة بين **الألفاظ** التي تناولها في القسم الأول من المنهاج وبين **المعاني** التي تناولها في القسم الثاني منه.

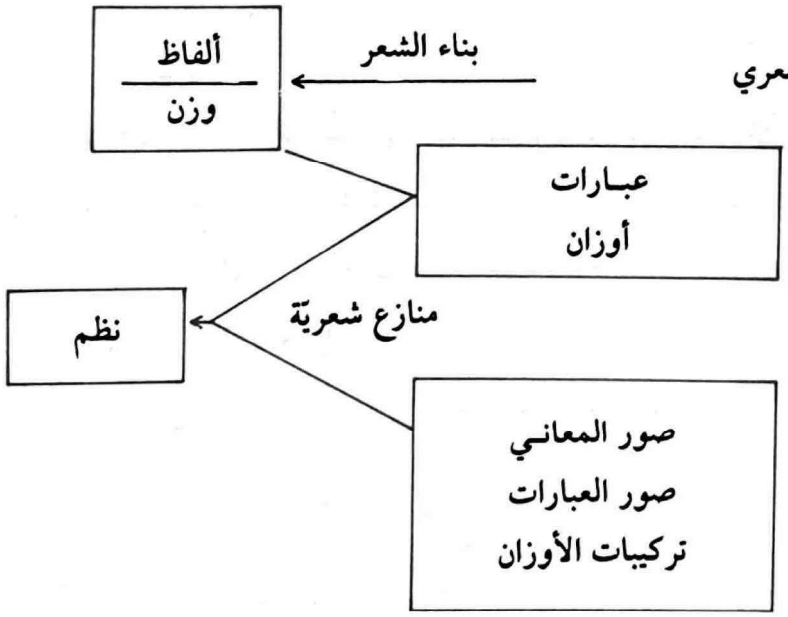
وإذا كانت النظريّة الشعريّة عند حازم قد ميّزت بين **النظام والنظم** من جهة وبين **المنحى والأسلوب** من جهة أخرى فإنّها قد جعلت للشعراء **منازع نظميّة** كما جعلت لهم **منازع أسلوبيّة** حتى أنّ الشاعر ليتميَّز عن غيره من الشعراء ويعرف بمنزعه الخاص به في نظمه ومنزعه الخاص به في أسلوبه. المتنبّي شاعر حازم المفضل ـ مثلاً ـ تميّز في أسلوبه بمنزعه في المراوحة بين المعاني الشعريّة والمعاني الخطابيّة على نحو ما سبق إن أشرنا إليه. كما تميّز في نظمه بمنزعه في تذييل فصول قصائده بالاستدلالات الخطابيّة التي تأتي آخر الفصل صوراً إقناعيّة لمعانيه المخيّلة أساساً أوَّل الفصل[1].

(1) رسم بياني بتصور حازم للأسلوب والنظم، والمنحى والمبنى في الشعر.

المنحى الشعري



النظام والبناء الشعري



هكذا استطاع أبو الحسن حازم القرطاجنّي في إطار هذا التقسيم الرباعي لكتابه «منهاج البلغاء وسراج الأدباء»: ألفاظ، معان، مبان فنية، أسلوب؛ وتأسيساً على معطيات فلسفيّة أرسطو طالسيّة في أساسها ومن خلال مصطلحات فنية خاصة[1]، أن يفرّق ـ ابتداء ـ في نظريته ـ بعد أن ربط النقد بالفلسفة ـ بين فن الشعر وفن الخطابة وينتصر لعنصر التخييل في العمل الشعري ويجيز للشاعر ـ على طريقة أبي الطيب المتنبي ـ أن يلجأ كعنصر ثانوي للإقناع. ويحدّد على هذا الأساس موقع الأقاويل الشعريّة من الصدق والكذب وهي قضيّة طالما شغلت نقادنا العرب. ويحدّد أيضاً بشكل جلّي وواضح ماذا يعني بالمعاني الشعريّة. ويضع تصوّراً في البنية التركيبية للعمل الشعري مفصّلاً القول ـ أولاً ـ في المراد بالصناعة النظميّة؛ ومفرقاً ـ ثانياً ـ بين ما هو فصل وما هو بيت في إطار القصيدة العربية؛ ثم مميّزاً بين النظم والأسلوب في الأعمال الشعريّة. فالنظم يكون في بناء هذه الأعمال بالألفاظ والأوزان. والأسلوب يكون في اتجاه أغراض هذه الأعمال ومناحي الشعراء في معانيها لذلك تمايز هؤلاء الشعراء وتفاضلوا بمنازعهم النظميّة ومنازعهم الأسلوبيّة.

لقد وضع القرطاجنّي هذه الخطوط العريضة لنظريته من خلال تحليلات دقيقة ووقفاتٍ طويلةٍ عند كل صغيرة وكبيرة من قضايا الشعر والبلاغة والنقد كما هي في التراث العربي السابق له. وأعاد النظر من خلالها في كلِّ شيء تقريباً. وكان هدفه واضحاً وهو تجاوز الماضي في محاولة منه للانطلاق إلى آفاق مستقبليّة. يقول: «لقد سلكت من التكلم في جميع ذلك مسلكاً لم يسلكه أحد قبلي من أرباب هذه الصناعة لصعوبة مرامه وتوعّر سبيل التوصّل إليه. هذا على أنّه روح الصنعة وعمدة البلاغة... فإنّي رأيت الناس لم

(1) لقد قمت بتحديد مفاهيم هذه المصطلحات الخاصة وغير الخاصة التي جاءت في كتابه، انظر المرجع المشار إليه بهذا الخصوص:

LES IDEES ET LES TERMES TECHNIQUES LITTERAIRES CHEZ HAZIM...

يتكلموا إلاّ في بعض ظواهر ما اشتملت عليه تلك الصناعة [فتجاوزت أنا تلك الظواهر] ـ بعد التكلّم في جمل مقنعة مما تعلَّق بها ـ إلى التكلّم في كثيرٍ من خفايا هذه الصنعة ودقائقها»[1].

كان حازم ـ بحق ـ مجدّداً حتى في الصورة الشكليّة التي قدم فيها مؤلَّفه المميّز بأقسامه ومناهجه ومعالمه ومعارفه وإضاءاته وتنويراته ومآمه[2] وهو بكلِّ ذلك ـ في القرن الثالث عشر الميلادي ـ وفي مجال تخصّصه ـ كان يبشر بولادة عالم جديد. لقد بشّر بذلك قبله ابن رشد (ت 1198 م) الذي أراد للفلسفة أن تنطلق من عقالها كما بشّر بذلك من بعده ابن خلدون (ت 1406 م) الذي أراد للتاريخ والمجتمع أن ينبعثا. ولقد ولد بفضلهم وفضل أمثالهم هذا العالم الجديد ولكن ولادته جاءت من وراء بلاد الأندلس.

(1) انظر المنهاج ص 18 ـ 16 تنوير.

(2) يُبَوِّب حازم كتابه بهذه المصطلحات حسب الترتيب: أقسام بمعنى أجزاء، مناهج بمعنى فصول، معالم أو معارف بمعنى مباحث داخل الفصول، إضاءات أو تنويرات بمعنى نقاط داخل المباحث.